«العقل الماص»

كيف ينمو عقل الطفل؟

تفترض نظريات التعليم التقليدية أن عقل الطفل ينمو بالتدريج في خط طولي تصاعدي ثابت من الطفولة حتى البلوغ، وكأننا ننمو ونتعلم في جميع جوانب الحياة بطريقة متناسقة ثابتة. على هذا الأساس تم وضع المناهج لتغطي القراءة والكتابة واللغة والنحو والحساب والجغرافيا والتاريخ والعلوم، لتبدأ جميعها في الصف الأول الابتدائي ويزداد كم المعلومات كل عام حتى الانتهاء من مرحلة الثانوي.

خلافًا لنظريات التعليم التقليدية، بَنَت د. «ماريا مونتيسوري» عملها على مصطلح «مستويات النمو». هذا يعني أن نمو الطفل يحدث في موجات، ومع كل موجة يمكنه بسهولة معرفة واكتساب بعض المهارات والقدرات – إذا أعطيت له الفرصة والنشاط المناسب. كل مستوى يتسم بعدة مراحل حساسة ويجب عليكم استغلالها على أكمل وجه.

مستويات د. «ماريا مونتيسوري» للنمو تنقسم إلى عدة مراحل: من سن 0 – 6، ومن 6 – 12، ومن 12 – 18، ومن 18 – 24.

يستند نهج المونتيسوري على دراسة كل مستوى من هذه المستويات وتطوير الأنشطة والمواد والأدوات اللازمة لإتاحة أكبر فرصة للتعلم والإدراك. هذا يعني أن هناك وقتًا مناسبًا يستطيع الطفل أن يتعلم فيه الأرقام والأبجدية، ووقتًا آخر يمكنه استخدام معلوماته تلك في إجراء عمليات حسابية بسيطة: تكوين كلمات مكتوبة، أو القراءة.

ما هو «العقل الماص» أو العقل الممتص؟

أهم مستوى من مستويات النمو هو المستوى الأول، من سن 0 – 6، وينقسم المستوى الأول إلى مرحلتين: من سن 0 – 3 ومن سن 3 – 6.

أطلقت د. «مونتيسوري» على هذه المرحلة فترة «العقل الماص» لأن الطفل يدرك ويتعلم من خلال امتصاص كل شيء حوله عن طريق حواسه وقدرته الفائقة على الملاحظة.

يمتص الطفل اللغة والسلوكيات والأخلاق وطريقة عمل العلاقات من حوله وطبيعة العلاقة بين الأشخاص أو الأشياء كما يدرك خواص الأشياء وصفاتها من خلال رؤيتها، لمسها، سماعها، تذوقها، وشمها. كلما تعددت تجارب الطفل الحياتية في تلك المرحلة نتج عنها عقل ثري، واستيعاب أسرع وأسهل للمعلومات في المستقبل.

الطفل تحت الثلاث سنوات يعيش بداخل رأسه، لا يرى المحيطين به كيفية تخزينه للمعلومات أو كيفية انتقائها. لا يمكنكم أن تعلموه أي شيء إلا إذا بادر هو بذلك، لن يتعلم الأرقام إلا إذا سأل عنها! لن يتعلم الفرق بين اليوم والأمس والغد إلا إذا رأى نبتة كانت بذرة أمس وظهر لها جذور اليوم وسوف تصير نبتة غدًا، ثم سأل عما حدث.

يستمر الأطفال من 3 – 6 سنوات في مرحلة «العقل الماص» ولكنهم أكثر ميلًا نحو الامتصاص الواعي، يدركون أن لديهم خيارات ويريدون أن يكونوا أصحاب رأي وقرار، كما أنهم ينجذبون إلى الأنشطة التي تعطيهم شعورًا بالرضا وتحقيق الذات. هذا هو السن المناسب لتقديم أنشطة تعليمية تلائم ميولهم وتراعي الاختلافات الفردية بين طفل وآخر.

إذا أردتم أن تعلموا طفلكم آداب الحوار أو آداب الطعام أو التحية أو التحدث بصوت هادئ، يجب عليكم أن تكونوا هذا الشخص، لأن الطفل يمتص سلوككم. أول درس

للطفل في الحب واحترام الأسرة وأسس العلاقة بين الرجل والمرأة يتلقاه في المنزل عندما يمتص عقله النظرات واللمسات بين أبيه وأمه، وعندما يستمع إلى حوارهما أو صمتهما، وكلما قرأ الفرق بين الوجه السعيد والوجه الحزين في وجوههما!

يستطيع الطفل دون السادسة امتصاص الحب والحنان والاحترام والسلام كما يستطيع امتصاص الغضب والقهر والألم والعنف في بيئته. يسيطر «العقل الماص» على تشكيل انطباع أَوَّلي ودائم عن العالم والعلاقـات من حول الطفل من خلال بيئته وتنوع خبراته. شددت د. «ماريا مونتيسوري» على أهمية الجمال والتناغم، والنظام، والسلام في بيئة صديقة للطفل. إذا كانت البيئة معادية للطفل، سوف ينمو ليصبح عدوانيًّا تجاه البيئة المحيطة به.

ما هو الفرق بين طرق تعلم الطفل في أول ثلاث سنوات من عمره، وفي مرحلة الطفولة المبكرة، وفي بداية المرحلة الابتدائية؟ ما هو دوركم في كل مرحلة كمعلمين له؟

مرحلة «ما هذا»؟

أسهل مرحلة من مراحل تعليم الطفل هي تلك التي تمتد من ميلاده حتى نهاية عامه الثالث. في هذه المرحلة يتعلم الطفل من خلال الملاحظة والتكرار. ببساطة يلاحظ الطفل أفعالكم وحركاتكم وتصرفاتكم ولغتكم فيتعلم منكم ويحاول أن يحاكيكم. في محاولاته لتعلم شيء ما، ستجدونه يكرر نفس الشيء مرارًا وتكرارًا بلا ملل حتى يتقن ما يحاول أن يتعلمه.

دوركم كمعلمين في هذه المرحلة هو النظر لطفلكم ومتابعة عينيه ويديه لتعرفوا ماذا تقدمون له من أنشطة – أي متابعة «المراحل الحساسة». مثلًا، إذا لاحظتم يد الطفل تعبث بغطاء زجاجة المياه، فاعلموا أنه كان يراقبكم ويتعلم سر فتح الزجاجة، والآن هو يحاول أن يطبق ما تعلمه وسوف يكرره حتى يتقنه. دوركم هو تقديم فرص كثيرة له لينمي مهارة وضع الغطاء على الزجاجة ومهارة فتح وغلق مختلف الأغطية.

مرحلة «لماذا»؟

في مرحلة الطفولة المبكرة، من العام الثالث للعام السـادس، تستمر «المراحل الحساسة»

في الظهور، وستجدون فضول طفلكم يتجه للحروف وللأصوات التي تكوِّن الكلمات ولمزج الألوان ولمقارنة الأطوال والأوزان والتلامس والأصوات. ستجدونه مهتمًّا بالمطابقة والتصنيف والترتيب وفقًا للتدرج. ستجدونه فخورًا باستقلاله وبقدراته على خلع وارتداء ملابسه والتعامل مع مختلف أدوات ربط وضبط الملابس من الزر للسوستة للحزام للشريطة والفيونكة. ستجدونه مهتمًّا بكوكب الأرض والقارات والبلاد وبالشمس والقمر ودورة الأرض حول الشمس. ستجدونه مبهورًا بتتابع الأيام والأشهر وسيبدأ في حب الأرقام وإيجاد علاقات بينها وبين قيمتها واستخدامها اليومي في حياتنا.

دوركم في هذه المرحلة هو تقديم الأنشطة للطفل وفقًا «للمراحل الحساسة» وأن تراعوا احتياجه للتعلم من خلال حواسه ومن خلال تحويل كل ما هو نظري أو مبهم أو مجرد إلى أداة تجعله يلمس ويحرك ويتفاعل مع العلوم المختلفة. دوركم في هذه المرحلة هو التدرج من السهل المبسط تمامًا للأصعب فالأصعب. دوركم هو تقديم الصورة كاملة ثم تقسيمها إلى أجزاء تتدرج في التفاصيل. مثلًا تقدموا للطفل مفهوم الكائنات، وكيف تنقسم الكائنات إلى كائنات حية وكائنات غير حية، كيف تنقسم الكائنات الحية لحيوانات ونباتات، كيف تنقسم الحيوانات إلى فَقَاريات ولا فَقَاريات؛ كيف تنقسم الفَقَاريات إلى أسماك وبرمائيات وزواحف وطيور وثدييات. الهدف ليس تعليم الطفل التصنيف ولكنه مساعدة الطفل على إدراك العلاقة بين كل ما يدرس وربطه بالصورة الكبرى للحياة.

مرحلة كيف؟

في النصف الأول من المرحلة الابتدائية _من العام السادس إلى العام التاسع_ تكاد «المراحل الحساسة» بصورتها المألوفة أن تختفي. يتوقف الطفل عن التكرار كطريقة للتعليم ويمل سريعًا تكرار نفس النشاط، ولهذا قدمت د. «ماريا مونتيسوري» أنشطة عديدة متنوعة تعلم الطفل نفس المفهوم. مثلًا، لتعلم الجمع، هناك أكثر من خمس أدوات وأنشطة وامتداداتهم.

هناك تغير آخر، لا يمكن أن يتنبأ أحد بما يحاول الطفل أن يتعلم من خلال حركة يديه أو جسده. تقفون في حيرة تامة أمام طفلكم وتشعرون أنكم لا تدرون ماذا تقدمون له الآن

من أنشطة. تسمي كتب المونتيسوري هذه المرحلة بمرحلة «الخيال»! دوركم في هذه المرحلة هو إثراء الخيال وإشباعه! ليس دوركم في هذه المرحلة حشو عقل الطفل بمعلومات لا يدرك أهميتها ولا يعرف كيفية توظيفها ولا يجد علاقة بينها وبين حياته أو علاقة بينها وبين البعض. تذكروا أن هذه هي «المرحلة الحساسة للخيال».

في بداية دراستي لدبلومة المونتيسوري من 6 – 9، وجدت أن العام الدراسي يبدأ بخمس قصص تتكرر لمدة ثلاثة أعوام بنفس طريقة السرد والتجارب والتفاصيل. القصة الأولى هي قصة نشأة الكون وكوكب الأرض. القصة الثانية هي قصة بداية الحياة على كوكب الأرض. القصة الثالثة هي قصة الإنسان وتعايشه على كوكب الأرض. القصة الرابعة هي قصة تطور الكتابة. القصة الخامسة هي قصة تطور الأرقام والعد.

تفتح هذه القصص الباب أمام الطفل لتعلم فنون اللغة والرياضيات وعلوم الفضاء ودراسة المادة والتاريخ والجغرافيا وثقافة الشعوب وعلم النبات وعلم الحيوان والتجارب العلمية التي تمهد للنظريات الفيزيائية والكيميائية. تثير فضوله لمعرفة تاريخ الموسيقا والفنون ويدرك أهم مبادئ السلام: نحن ورثنا كوكب الأرض عن أسلافنا واستفدنا من اكتشافاتهم واختراعاتهم وتضررنا من أخطائهم في حق المناخ والتوازن البيئي وإقامة العدل وتوزيع الثروات. سوف يرث أبناؤنا وأحفادنا الكوكب من بعدنا فأي إرث سنترك لهم؟